الأوطان بين الشعب والسلطان!!*

http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa98-071215.pdf

د. صادق السامرائي
أمريكا - العراق
sadiqalsamarrai@gmail.com

تبدو الأوطان وكأنها مصنوعات أرضية من إنتاج أهلها , أو كالأوعية التي يزيّنها ما فيها , وتقاس قوة أي وطن بمدى قدرات شعبه على التفاعل الأمثل مع مكوناته , وبقابلياته على إبتكار نظام حياته الجامع والمُنمّي لطاقات ما عنده وفيه.

وهذه محاولة لتشريح السلوك الفاعل في أروقة الوعاء الوطني , وما يترتب عليه من سلوكيات ذات نتائج سلبية أو إيجابية.

يجب أن يجاهد الحاكم للإرتقاء بوعي الناس إلى غايات مشتركة , لكي يحافظ على نظام حكمه بأقل خسارة ممكنة , وإلا فأن الصِدام سيتحقق والخسارة ستزداد في أطراف الصراع , فتخسر الحكومة والناس معا ويربح أعداؤهما.

إن الحاكم الذي لا يطيع إرادة الناس يخسر ويُعزل أو يُقتل , وفي التأريخ العربي الكثير من الشواهد ,
وفي الزمن المعاصر توجد العديد من الأمثلة.

فالخلل ليس في الحاكم ولا بالناس, بل في صياغة أسس العلاقة ما بين الإتجاهين , فالجميع على حق, غير أنهم ينظرون إلى الموضوع بزوايا ومَرايا مختلفة , وعندما يكون النظر بزوايا قائمة يتحقق الصراع الدامي والخسائر القاسية.

فالحاكم مهما كان نوعه يريد نظاما قويا وبلدا مقتدرا, ليرضي غروره ويحقق رغباته وحاجاته النفسية.
وكلما إزداد البلد قوة إزداد الناس قدرة على الحياة الأفضل.
ولا يوجد حاكم ضد شعبه إلا مَن كان في عقله لوثة وفي نفسه مرض.

إن المأساة تكون عندما تضطرب عوامل العلاقة الصحيحة بين السلطة والشعب وترتقي إلى درجة العداء.
وأتعس أيام الحاكم والشعب عندما يتمسك الحاكم بالحكم بالحديد والنار , ويمارس مهنة القتل الفوري لمعارضيه , وهذا يشير إلى إنتهائه ومعدودية أيامه , لأنه إن تمادى في بطشه سيساهم في دنو نهايته. والحاكم الحصيف عليه أن يحرص تماما على أواصر العلاقة الصحيحة مع شعبه , وعوامل ذلك توفير الأمان وأسباب السعادة والحرية والرفاه , وركن الحرية الأساسي هو حرية الرأي, لأنه

تبدو الأوطان وكأنها مصنوعات أرضية من إنتاج أهلها , أو كالأوعية التي يزيّنها ما فيها

تقاس قوة أي وطن بمدى قدرات شعبه على التفاعل الأمثل مع مكوناته , وبقابلياته على إبتكار نظام حياته الجامع والمُنمّي لطاقات ما عنده وفيه

إن الحاكم الذي لا يطيع إرادة الناس يخسر ويُعزَل أو يُقتل , وفي التأريخ العربي الكثير من الشواهد , وفي الزمن المعاصر توجد العديد من الأمثلة

الخلل ليس في الحاكم ولا بالناس, بل في صياغة أسس العلاقة ما بين الإتجاهين , فالجميع على حق, غير أنهم ينظرون إلى الموضوع بزوايا ومَرايا مختلفة

عماد التقدم وصناعة الحياة الراقية ويعطي للحاكم قائمة بالمستجدات.

فالحياة لا تقر بالثبات وبهذا يتواكب معها , وأي منع للرأي, إستبداد وطغيان ووجود لا مبرر له في سدة الحكم , فالحاكم الذي يخشى آراء شعبه عليه أن يتنحى , لأنه لا يخدم إلا نفسه وهو ضد طموحات الشعب وضد نفسه.

ووفقا لهذا المفهوم فأن الشعوب التي ترسف تحت وطأة سنابك الطغيان والإستبداد تكون خلف الحياة , وطريقها مشبّع بالعثرات والموانع والعقبات , لأنها تسعى وفق نظام ضياع خطوط التبادل الواعي ما بين الحاكم والشعب , والى تنمية المشاكل والمعضلات وإبعاد مؤهلات الحلول الناجعة , والوصول إلى ما لا يحصى من المشاكل المتواترة , وفي حقيقة الأمر لا توجد حلول بل قدرة عالية على توليد المشاكل , لإنقطاع أسباب الإتصال الصادق الواعي بين الأطراف , فيكون سبب بقاء الأنظمة تفاقم المشاكل وتعقيدها , ولا يمكن للحاكم أن يبقى دون مشاكل وأزمات.

فهو يسعى إلى تبديد بعضها كما يرى على حساب تنمية البعض الآخر , وتوفير الظروف الملائمة لتطويح الرؤوس , وإغراقها بدوامة لا تنتهي من العناءات , التي تصيبها بالدوار وقصور النظر , فلا تعرف أين مواطن الصح والخطأ.

وتمضي الدنيا وكل طرف في واد يزداد عمقا وظلاما , وتتحقق خسائر تأريخية وإقتصادية هائلة, جراء العلاقات المريضة والوجود الإغتصابي للنظام الذي يمسك الأعناق بالحديد.

لقد إرتقت الأمم والشعوب وتحققت الحضارات بتوفير أسس صحيحة وثابتة لمعنى العلاقة ما بين الشعب والسلطة , وما هي حقوق السلطة وواجباتها وما هي حقوق الشعب وواجباته.

وأن للشعب اليد العليا , وما السلطة إلا أسلوب لتحقيق إرادة الشعب بالكيفية الأمثل.

فالسلطة وُجدت كأسلوب أمثل لتحقيق أماني الشعب في السعادة والحرية والسلام , لكنها إنحرفت في أكثر الأحيان لغياب الحدود والضوابط اللازمة للحفاظ على التوازن , الكفيل بأسباب قيامها وإدامة وجودها الصحيح , وعدم رجاحة القوة في كفة عن الكفة الأخرى , لكن الحكومات تتجاوز واجباتها وتتعدى حقوقها.

لقد أثبت التأريخ بأحداثه أن أية أمة إنما هي ضعيفة وبلا قيمة مهما توفر لها من أسباب القوة والسيادة , عندما يتحكم فيها فرد مستبد , لأنها تتحول إلى فرد واحد في نظر الأمم الأخرى.

وهذا المستبد يتوهم كثيرا عندما ينظر إلى نفسه على أنه الأقوى على شعبه , وهو الأضعف عند الآخرين وتلك مأساة بحاجة إلى وعي وحذر.

إن الحكومات الإستبدادية تسعى إلى إمتلاك الشعب , وتحويله إلى رقيق مسلوب الإرادة والرأي يدين برأي السلطان.

وأي إدعاء بحرية الرأي يُعد إنحرافا وعدوانا , فالرأي رأي السلطان وما عداه يسمى عداءا وخيانة وتهديدا للدولة , وزعزعة للأمان وإسرافا في الحرية المؤذية وما إلى ذلك من المسميات , التي تجيد صناعتها الحكومة الباغية على شعبها , والتي وضعته في أسر الإستبداد وزنزانة السلطان.

لا يوجد حاكم ضد شعبه إلا مَن كان في عقله لوثة وفي نفسه مرض

أتعس أيام الحاكم والشعب عندما يتمسك الحاكم بالحكم بالحديد والنار , ويمارس مهنة القتل الفوري لمعارضيه , وهذا يشير إلى إنتهائه ومعدودية أيامه

ركن الحرية الأساسي هو حرية الرأي, لأنه عماد التقدم وصناعة الحياة الراقية ويعطي للحاكم قائمة بالمستجدات

الحاكم الذي يخشى آراء شعبه عليه أن يتنحى , لأنه لا يخدم إلا نفسه وهو ضد طموحات الشعب وضد نفسه

أن للشعب اليد العليا , وما السلطة إلا أسلوب لتحقيق إرادة الشعب بالكيفية الأمثل

السلطة وُجدت كأسلوب أمثل لتحقيق أماني الشعب في السعادة والحرية والسلام , لكنها إنحرفت في أكثر الأحيان لغياب الحدود والضوابط اللازمة للحفاظ على التوازن , الكفيل بأسباب قيامها وإدامة وجودها الصحيح

إن من سوء حظ بعض الشعوب أن تولي أمرها لأحد أفرادها المشحون بالعقد والأطماع , والمشبع بدواعي الانحراف والانتقام لنفسه من الحياة.

فالطغاة مرضى نفوس وعقول , ولديهم رغبات مجنونة لا توافق طبيعة الوجود الإنساني , وأكثرهم من ذوي الشخصيات اللاإجتماعية الميتة الضمير.

فإن توفر مثل هذا الشخص في سدة الحكم , فلتلهو الشعوب بجراح مآسيها , وتتغذى بدموع أحزانها وتتنازل عن شبابها , وتسوق أطفالها إلى بيوت الأيتام , ونساءها إلى بيوت الأرامل–إن وجدت– وتنتظر إلى متى يصحو الزمان.

****

والشعوب الحية تستفيد من تجاربها , وتضع الحدود الكفيلة بدرء المآسي وإبعاد الخطوب وعدم تكرار الويلات.

أما الشعوب السائبة فأنها لا تعرف لخطواتها طريقا واضحا , ولا تفهم إلا الإضطراب في حمام الأحزان والآلام.

والسؤال الكبير الذي يطلق نفسه ويلزمنا بالإجابة عليه , هو لماذا تكون الشعوب كذلك؟

ولماذا تصنع الأمم والشعوب جلاديها؟

وأول ما يتبادر إلى الأذهان غياب العقل ونضوبه من المعرفة والإدراك , وحلول بعض الأفكار المعادية لوجود الشعب في عقول أبناء الشعب.

إن ميوعة عقل الشعوب وإفراغه من محتواه , وإحلال ما يروق للطامع فيه هو السبب المباشر في هلاك الشعوب وإحتراقها , وأكلها لنفسها بالقتل والحروب الداخلية والصراعات الطائفية والعرقية , وغيرها من أسباب التدمير والإهلاك الوافدة إلى العقول المتصحرة , والتي تحجب عنها غيوم الجهل المدلهمة ضياء الشمس وأنوار الحقيقة الساطعة.

إن حالة العداء ما بين شعوب الأرض قائمة منذ الأزل وستبقى أبدا, ولن نأتي بجديد إن تحدثنا عنها, ولكن المهم في الأمر أن ترتقي الشعوب إلى مستوى الحيطة والحذر , والى درجة الإكتفاء الذاتي اللائق بحياة حرة كريمة , لكي تكون علاقتها مع الشعوب الأخرى متكافئة , وأن تعرف كيف تنهل من المعرفة الإنسانية , وتبتكر الجديد والضروري لحياة أفضل تجعل الشعوب الأخرى في حاجة لدورها وفعلها في الحياة.

وإن إمتلكت ما لايمتلكه غيرها من الثروات والمميزات , فأن عليها أن تستنفر طاقات عقول أبنائها وتوظفها لإبتكار الأساليب الأمثل , لتحقيق أكبر فائدة ممكنة منها دون الإضرار بالشعوب التي لا تمتلكها.

لأن أي ضرر فادح يحصل لها ينعكس على الشعب المالك , وعندها تستنفر تلك الشعوب عقولها للإيقاع به وسلبه ما يملكه , وتدبير المكائد الكفيلة بعزل الشعب عما يملكه , وتحويله إلى نقمة عليه بدلا من أن يكون نعمة , خصوصا إذا تهاون الشعب المالك في حقوق أبنائه وآرائهم وهدر عقولهم بتأسيس حكومة مستبدة لا تعرف إلا الكرسي.

أن أية أمة إنما هي ضعيفة وبلا قيمة مهما توفر لها من أسباب القوة والسيادة , عندما يتحكم فيها فرد مستبد , لأنها تتحول إلى فرد واحد في نظر الأمم الأخرى

إن الحكومات الإستبدادية تسعى إلى إمتلاك الشعب , وتحويله إلى رقيق مسلوب الإرادة والرأي يدين برأي السلطان

من سوء حظ بعض الشعوب أن تولي أمرها لأحد أفرادها المشحون بالعقد والأطماع , والمشبع بدواعي الانحراف والانتقام لنفسه من الحياة

الطغاة مرضى نفوس وعقول , ولديهم رغبات مجنونة لا توافق طبيعة الوجود الإنساني , وأكثرهم من ذوي الشخصيات اللاإجتماعية الميتة الضمير

السؤال الكبير الذي يطلق نفسه ويلزمنا بالإجابة عليه , هو لماذا تكون الشعوب كذلك؟

ولماذا تصنع الأمم والشعوب جلاديها؟

إن الإستبداد يخدم أعداء الشعب المبتلى به , ولا يحقق أية منفعة للشعب بل يساهم في قتل طموحاته وإرجاعه عقودا إلى الوراء, ويُمَكّن الأعداء منه , ويوفر الفرص اللازمة لإستلاب حقوقه من قبلهم.

ولهذا فأن العقول الواعية المشحونة بالمعرفة والثقافة , والتي لا تكل يوما من الإستزادة , مطالبة بأن تؤسس لها منابر مؤيّدة بإسناد الشعب لإبداء الرأي في كل شأن له علاقة بالشعب , وعلى الحكومات أن تتفاعل مع هذه المنابر وتتدارس المشاكل بعقل علمي يرتقي إلى مستوى عصرها , وتتمازج مع المستجدات الإبداعية فيه , فالعلم والعقل المفتوح الباحث المجتهد مطلوب في قيادة الشعب إلى أهدافه وطموحاته.

وإن الحاكم العالم في العصر الحالي ضروري لحياة الشعوب , وعليها أن تعي هذه الحقيقة وتتمثلها جيدا , فالشعوب في هذا الزمان لا تحتاج إلى بطل يلهب مشاعرها ويؤجج عواطفها ويقودها إلى أتون الحرب والدمار.

إن الشعوب بحاجة إلى حاكم عالم حكيم يستنهض كل خلية في أدمغتها , ويحفزها على الإبداع العلمي والروية والتبصر في معالجة الأمور , ويساهم في صناعة جمهرة من العلماء , لأن الشعوب القوية , قوية بعلمائها وعظيم ما فيها من العقول, وأن يكون لهذه الشعوب فلسفتها الناضحة من إبداع عقول أبنائها في ماضيهم وحاضرهم , وأن تستغني وتستعفف عن رؤى الشعوب الأخرى , لأن فلسفات الحياة خاصة بالشعوب التي أوجدتها وإستخلصتها من تجاربها هي لا من تجارب غيرها , فلكل شعب طبع وتأريخ وظروف مغايرة لظروف الآخر , فالإستعارة العمياء غير مقبولة , وقد تكون مؤذية لأن وعاء الأفكار والتجارب يختلف.

وبهذا يمكن للشعب أن يصنع حياته , ويساهم في بناء حضاري ضروري للإنسانية , ويحقق أعلى درجات الأمان والسعادة والحرية إذا عرف نفسه وتمثل غاياته , وحوّلها إلى أفعال يومية تؤدي في حصيلتها إلى هدفه الأسمى وغايته المثلى.

****

إن الشعوب التي تنزع وراء تصورات الشباب تنتهي إلى دياجير المراهقة المضطربة المتخبطة بطاقاتها العشوائية التائهة , فالشباب يتصور بأن الكبار لا يعرفون وربما مجانين , في حين أن الكبار يعرفون بوضوح أن الشباب لا يمتلك الخبرة الكافية للريادة والقيادة.

وهكذا فان طاقات الشباب وإندفاعاتهم يجب أن تُهَذب بعقول الكبار وحكمتهم , وفق ما يحقق أكبر منفعة ممكنة بعيدا عن أنانية الكبار وإحتكارهم , ومحاولاتهم التدرع ضد الأجيال الصاعدة , ويجب أن يكون الهدف الوطن أولا وليس الفردية القاتلة أولا.

ولا بد من الإحتراس من الإرتقاء إلى جحيم الإستنساخ , وحمى التجريب المؤدّية إلى أكبر الخسائر التي يمكن أن تلحق بالشعوب.

فالعقول الحكيمة الكبيرة الناضجة , التي إمتلكت القدرات العالية في فن الأفعال الصحيحة لا تجرب , بل تنجز بدرجات متفاوته من النجاح.

ولو تأملنا الشعوب التي أسلمت أمرها لشبابها لرأينها تتحدث عن التجارب , ولا يترشح مما تسميه

إن ميوعة عقل الشعوب وإفراغه من محتواه , وإحلال ما يروق للطامع فيه هو السبب المباشر في هلاك الشعوب وإحتراقها

إن الإستبداد يخدم أعداء الشعب المبتلى به , ولا يحقق أية منفعة للشعب بل يساهم في قتل طموحاته وإرجاعه عقودا إلى الوراء, ويُمَكّن الأعداء منه , ويوفر الفرص اللازمة لإستلاب حقوقه من قبلهم

أن العقول الواعية المشحونة بالمعرفة والثقافة , والتي لا تكل يوما من الإستزادة , مطالبة بأن تؤسس لها منابر مؤيّدة بإسناد الشعب لإبداء الرأي في كل شأن له علاقة بالشعب

إن الشعوب بحاجة إلى حاكم عالم حكيم يستنهض كل خلية في أدمغتها , ويحفزها على الإبداع العلمي والروية والتبصر في معالجة الأمور , ويساهم في صناعة جمهرة من العلماء

فلسفات الحياة خاصة بالشعوب التي أوجدتها وإستخلصتها من تجاربها هي لا

تجارب أي قانون سياسي صحيح , لأن نزقها لا يسمح بالتأمل والإستنباط.

لقد أوهمت بعض الشعوب من قبل الطامعين بها , بأن الشباب يمتلكون حرارة الإندفاع وحكمة الشيوخ والعقلاء.

ومثل هذا القول ينافي الطبيعة البشرية وإرادة الخالق في خلقه , لإن من بديهيات الوجود الإنساني وجود ثلاثة أجيال في زمن واحد.

الجيل الأول يقود لإمتلاكه لوازم الحكمة والإدراك , والجيل الثاني يعمل وفق رؤى الجيل الأول , وما يترشح من صيرورات حياتية جديدة أمامه , أما الجيل الثالث فأنه يتعلم من الجيلين السابقين , وأي خلل في هذا النظام الكوني يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

وقد أعطانا الله تعالى مثلا كبيرا عندما إصطفى نبيه الكريم في الأربعين , ويسره لإمتلاك القيادة بعد ثلاثة عشر عاما , وكان من الممكن أن يتنزل عليه الوحي وهو في سن أصغر من ذلك , لكن قوانين الكون الثابتة ونواميس الوجود الفاعلة , تقضي بأن يتحقق الوحي في الأربعين بعد سكون النفس وإكتمال العقل وقيام الروح.

وهذه من الحقائق التي أغفلتها الشعوب فإستكانت للهزائم , ولحقت بها الخسائر وتأخرت عن أقرانها.

إن قوانين السماء ورؤى رجالات الشعوب , قد وفرت لها معينا ثريا وواضحا في كيفية تحقيق الموازنة المثلى ما بين الأجيال , وزودت البشرية بخطة عمل ثابتة تقودها إلى غاية الأماني والطموحات الإنسانية الراقية , وقدمت بيان ولادة حضاري أصيل ممهور بخواص وقدرات الشعوب , لكنها تميل عنها وتعتنق ما تجود به قرائح البشر المريضة ذات الغايات الفردية والغرائزية البحتة.

إن رؤى البشر الواحد قاصرة لأنها نقطة نظر في موضوع فيه ما لا يحصى من نقاط النظر, وكلما تفاعل عدد أكبر منها إقتربنا من الحقيقة , وإلا فنحن بعيدين كل البعد عنها , فقطرة الماء ليست نهرا أو بحرا , وذرة الرمل الواحدة لا تمثل كل الحالات التي يكون عليها الرمل بتجمع ذراته , وهكذا هي موضوعات الحياة المتحركة الراسخة في دنيا البشر.

وإلا فان الشعوب تكون مثل السائل في أي إناء تضعه يأخذ شكله , وهنا تتحقق فاجعتها وتمضي في طريق الآهات ولا تستقر أبدا.

إن الشعوب التي تأخذ شكل النظام الذي توضع فيه , شعوب ضعيفة مسلوبة الإرادة وكتب عليها الشقاء جيلا تلو جيل.

إن الشعوب الحرة الأبية لها شكلها ورؤاها الواضحة وطريقها المعلوم.

أما شعوب الأواني المستطرقة فهي شعوب بائسة ذليلة وعالة على الحياة , ولا يجد أي نظام سياسي بدا من البطش بها وإستعبادها , فتكون هدفا سهلا للطامعين بها لأنهم يوفرون لها الشكل الذي يناسب غاياتهم فيجنون أرباحا هائلة , والشعوب سكرى بالتشكل وفقا للنظام الموضوع لإمتهانها.

فهل تقود العقول الشعوب أم أن الشعوب تقتل عقول أبنائها , وتعطي راية قيادتها لمن يجيد اللعب بعواطفها ودغدغة مشاعرها , والأخذ بها إلى حيث لا تدري إلى أين!!؟

من تجارب غيرها

العقول الحكيمة الكبيرة الناضجة , التي إمتلكت القدرات العالية في فن الأفعال الصحيحة لا تجرب , بل تنجز بدرجات متفاوته من النجاح

قوانين الكون الثابتة ونواميس الوجود الفاعلة , تقضي بأن يتحقق الوحي في الأربعين بعد سكون النفس وإكتمال العقل وقيام الروح

إن رؤى البشر الواحد قاصرة لأنها نقطة نظر في موضوع فيه ما لا يحصى من نقاط النظر, وكلما تفاعل عدد أكبر منها إقتربنا من الحقيقة , وإلا فنحن بعيدين كل البعد عنها

هل تقود العقول الشعوب أم أن الشعوب تقتل عقول أبنائها , وتعطي راية قيادتها لمن يجيد اللعب بعواطفها ودغدغة مشاعرها , والأخذ بها إلى حيث لا تدري إلى أين!!؟

إن الشعوب العاقلة هي الشعوب الحية , أما شعوب العواطف والإنفعالات والإندفاعات الطائشة فهي

إن الشعوب التي ترخي العنان لشبابها ليأخذوا بها إلى حيث يريدون , دون إمتلاك القدرة على كبح الجماح , وتوجيه الطاقات في مسارات مفيدة لإعلاء وتحقيق مصالحها ترمي بنفسها في أجيج الإنتهاء.

إن تولي الشباب لزمام أمر الشعب يدفع به إلى الهاوية ويكلفه حياة أجيال متعاقبة , والشعوب الحية هي التي تولي أمرها لعقلائها , وتجيد توظيف طاقات شبابها إلى حيث الهدف الأكبر لها.

وأي خلل في التوازن يقضي على عقول الشعب ويشردها , ويترك البلاد مشحونة بإضطراب العواطف والإنفعالات التي تأتي بالأضرار الكبيرة.

وكم عانت الشعوب من الطيش السياسي لشبابها الذي حالما تؤازره ينقلب وبالا عليها.

إن الشعوب العاقلة هي الشعوب الحية , أما شعوب العواطف والإنفعالات والإندفاعات الطائشة فهي الشعوب الميتة , لأنها لا تحقق إلا الويلات وتكلف أجيالها أعباءً تقيّد مسعاها في الحياة , فتخطو خلف الشعوب الحية وتنوء من ثقل الأيام وأوزار الزمان.

****

إن الشعوب الحية تمتلك فلسفات ورؤى عميقة للوجود والحياة وكيف ستكون , أما الشعوب الميتة فمجردة من خبرة التجربة , لأنها لا تعقلها بالدراسة والتحليل , ولا تمتلك إلا وشاح الرغبات والحاجات الآنية الإشباع.

والشعوب العاقلة تلجم عواطفها بعقلها ورجاحة بصيرتها , ولا تسمح بجيشان العاطفة وتأسير العقل , بعكس الشعوب الميتة التي تدوس عقول أبنائها بأقدامها , وتندفع كالثور الهائج إلى مصيرها المعلوم لغيرها والمجهول في عرفها.

وهكذا فأن مآسي الشعوب من صنعها لا من صنع الآخرين وإن ساهموا في تحقيقها , لأنها هي التي فتحت النوافذ والأبواب للآخرين لكي يتمكنوا منها.

ولا شعب يقدر على شعب إن لم يوفر الشعب ظروفا وأسبابا ملائمة لإستعباده وإمتلاك خيراته.

فالشعوب بعقولها وحكمتها يمكنها الحياة مع الأسماك الكبيرة والصغيرة , وبإنفعالاتها لا يمكنها أن تعيش حتى مع نفسها , فتأكل أبناءها وتدعو غيرها إلى رحبة الدار , وتوليهم أمرها وترمي بحالها في بحر الخنوع والإمتثال والذلة.

ولا شيئ يعيق التقدم عندما تكون الأفكار صحيحة والإيمان ساطع , وقد تحقق ذلك بوضوح في عصر بداية الدعوة الإسلامية.

إن الثورات تقوم للحفاظ على الحريات ورعايتها , وليس للإمعان في كبحها وخنق الآراء وإصدار القوانين القاضية بموت أصحابها , إن هذه ليست ثورات وإنما إنقلابات فردية لتحقيق غايات ورغبات شخصية , ولإطلاق عقد الشخصيات المريضة من معاقلها وإنفلاتها.

إن الثورات هي نهاية المطاف في مواجهة المعضلات تلجأ إليها الشعوب الحية , لتحقيق حياة

الشعوب الميتة , لأنها لا تحقق إلا الويلات وتكلف أجيالها أعباءً تقيّد مسعاها في الحياة

إن الشعوب الحية تمتلك فلسفات ورؤى عميقة للوجود والحياة وكيف ستكون , أما الشعوب الميتة فمجردة من خبرة التجربة , لأنها لا تعقلها بالدراسة والتحليل

الشعوب العاقلة تلجم عواطفها بعقلها ورجاحة بصيرتها , ولا تسمح بجيشان العاطفة وتأسير العقل , بعكس الشعوب الميتة التي تدوس عقول أبنائها بأقدامها

مآسي الشعوب من صنعها لا من صنع الآخرين وإن ساهموا في تحقيقها , لأنها هي التي فتحت النوافذ والأبواب للآخرين لكي يتمكنوا منها

الشعوب بعقولها وحكمتها يمكنها الحياة مع الأسماك الكبيرة والصغيرة , وبإنفعالاتها لا يمكنها أن تعيش حتى مع نفسها , فتأكل أبناءها وتدعو غيرها إلى رحبة الدار

إن الثورات تقوم للحفاظ على الحريات ورعايتها ,

أفضل وقدرة أكبر على التعبير عن النفس , أما الإنقلابات الفردية فأنها تسعى إلى تحطيم المعايير الأخلاقية والفتك بالقيادات الجماهيرية والعقول النابهة الذكية , لتوفير أكبر مساحة من التسلط والإستبداد والطاعة المطلقة العمياء لرغباتها.

إن الثورات أسلوب إضطراري لتأمين حقوق الإنسان لا لسلبها وتحويله من سيد إلى عبد مهان.

إن الإنسان لديه حقوق طبيعية في الحياة والحرية وتحقيق السعادة والرفاه , ولديه أيضا حقوق مكتسبة كالتملك وغيره مما يحققه في حياته وفقا للأعراف والقوانين القائمة في الأرض التي يقطنها ,

ومع هذا فلا توجد حكومة مثالية أو متكاملة تضمن عدم مقاساة الإنسان من وطأة الطغيان والإستبداد , فالطغيان يتم فيه إستخدام القوة بأسلوب يتجاوز الحقوق ولا يمتلك أي مسوغ شرعي , أما الإستبداد فالقوة فيها بعض الحق والمسوغات الشرعية , لكنها تكون الأسلوب الأول لمعالجة المعضلات والمستجدات.

وهنا تبرز مشكلة توازن القوى بحيث لا يتمكن أحد من الإمساك بالقوة والصعود بها إلى حالة الطغيان والإستبداد , ولا يتحقق ذلك إلا بإرتقاء القانون إلى مستوى إرادة الشعب , وليس إلى إرادة السلطان.

فالطغاة يحمّلون الشعب وزر حمايتهم من أعدائهم لا من أعداء الشعب , ويحرقون الشعب بمشاكلهم التي لا ناقة له فيها ولا جمل.

وقد تزول معاناة الشعب بتهاوي قلاع الطغيان , فالطاغية يمتلك القدرة على صناعة الأعداء , لأن رغباته تصطدم مع كل شيئ, فهي رغبات غير مهذبة وغير مشروعة وغريبة عن أصول الحياة , ولا تمتلك ما يسوّغها إلا مبررات وأوهام من وحي الجور والطغيان القابع في الرأس المريض.

إن الطغاة يُصنعون في أحزاب طاغوتية تدين بمبدأ نفذ ثم ناقش , وبعد أن يتم صناعة طاغوتها تتحول إلى نفذ ولا تناقش , وبمبدأ القيادة هي الأدرى والأعرف.

وبهذا يتم لصق صفة الدونية بالشعوب التي يعبثون بعواطفها ويمتهنون مشاعرها.

وأي عقل يريد النظر يقولون له لا تنهمك فيما لا يعنيك فالقيادة هي الأدرى , وهم يعنون الشعب في كل خطوة وقرار يتخذونه ويستخدمون الشعب لتحقيق أغراضهم.

إن الأحزاب هي أعلى درجات الطمع والشره السياسي لأن بضاعتها أبناء الشعب, تبيعهم في الأسواق والمزادات التي تدر عليها ربحا سلطويا أوفر , ولا تفكر بما يصيبهم ولا تفهم معاناتهم أبدا , لأنهم في عرفها كالأرقام الجامدة تجمع وتطرح وتخصم , وهذا معنى الشعب في أعين الطغاة , وهم كأوراق الشجر تتهاوى في الخريف وتولد في الربيع , وهذه أقسى نظرة للإنسان تتحقق في عقل الحاكم الطاغية , لأنها تؤكد نضوبه من المعايير الإنسانية , وإنتمائه إلى معشر الوحوش , التي غايتها قتل كل حي إرضاءً لشهوة الفتك والتدمير لا غير.

وهذه الشهوة إن إنطلقت في صدر الطاغية فأنها لا تعرف الحدود , لتوفر الإسنادات النفسية المتواصلة لها , فأي فعل يدفع إلى فعل أكبر وهكذا دواليك.

إن الشعوب تساهم مباشرة في ذلك لأجيج عواطفها وإنهزام عقلها , فتكون مصدرا لخلق العابثين في مصيرها والقادرين على إبادتها.

وليس للإمعان في كبحها وخنق الآراء وإصدار القوانين القاضية بموت أصحابها

إن الثورات هي نهاية المطاف في مواجهة المعضلات تلجأ إليها الشعوب الحية , لتحقيق حياة أفضل وقدرة أكبر على التعبير عن النفس

إن الثورات أسلوب إضطراري لتأمين حقوق الإنسان لا لسلبها وتحويله من سيد إلى عبد مهان

الطغاة يحمّلون الشعب وزر حمايتهم من أعدائهم لا من أعداء الشعب , ويحرقون الشعب بمشاكلهم التي لا ناقة له فيها ولا جمل

قد تزول معاناة الشعب بتهاوي قلاع الطغيان , فالطاغية يمتلك القدرة على صناعة الأعداء , لأن رغباته تصطدم مع كل شيئ

إن الطغاة يُصنعون في أحزاب طاغوتية تدين بمبدأ نفذ ثم ناقش , وبعد أن يتم صناعة طاغوتها تتحول إلى نفذ ولا تناقش , وبمبدأ القيادة هي الأدرى

والأعرف

يبدو أن في أعماق النفس البشرية لبعض الشعوب في زمن ما نزوع لا شعوري لخلق سيوف مسلطة على أعناقها , كأنها تريد الإنتقام من نفسها والإستراحة من عذابات الضمير المتفاقمة في دنياها , فلا تستريح إلا بوجود السيف المسلط , والحاكم المطلق الذي لا يردعه قانون , فهو وحاشيته فوق القانون, بل أنه يستهين بالقانون ويراه من صنعه , ويطبقه على أبناء الشعب فقط , ولا يجوز له أن يخضع لقانون قد أصدره.

وهنا تكمن علة خبيثة على الشعب أن يتوقى منها ويقتلعها , وأن لا يسمح بإستشرائها , إنها علة مَن يصدر القانون ومَن يخضع للقانون.

إن القوانين الصحيحة هي التي تعبّر عن إرادة الشعب , وتخفف من المعضلات والمشاكل اليومية وتجد لها حلولا صالحة , وأن يخضع لها كل شخص في الأرض التي يتوطنها الشعب , ولا فرق بين الحاكم والمحكوم أمام القانون.

أما القوانين السلطوية فهي وسائل دفاعية لحماية السلطة ولا تعالج مشاكل الشعب , بل تضيف إليها وقودا لتزيد من أجيجها , وهي إن سعت إلى إيجاد حل لمشكلة ما , فعلى حساب ولادة مشاكل أخرى أعظم منها وأكثر.

ولو تأملنا القوانين السلطوية لرأيناها لا تخلو من أحد الإتجاهين أو كليهما معا , وتلك ظاهرة عامة متحصنة في نوازع النفس البشرية الغير مهذبة وفق معايير أخلاقية صحيحة , بل ترعرعت بهدى ما فيها من حاجات غير منضبطة التعبير.

إن الشعوب لكي ترتقي وتصنع حياتها الآمنة السعيدة , لا بد لها من ترشيح أخيارها عقلا وخُلقا ومنبعا وتنشأة , لتمثيلها في صياغة القوانين اللازمة لتذليل صعاب حياتها , وتحقيق أكبر قدر من مصالحها بأقل ما يمكن من الخسائر , وأن تمنع أسباب تمركز القوة لدرجة الطغيان عند شخص واحد ينفرد بها ويتفرد بعد ذلك بإمتهانها , وعليها أن تمتلك قدرات الحذر والإحتراس من الصعود إلى كهوف حتفها.

فالشعوب تقتل نفسها بنفسها عندما تصنع طغاتها وتذعن لإرادة السيف المستبد , الذي لا يتعب من جز رقابها ويستلذ بسفك دمائها كل صباح ومساء.

إن النفس البشرية الأمّارة بالسوء عندما لا تجد رادعا يقمعها فأنها تمضي على هواها , فتطلق خبايا سوئها وتلون الشعوب بألوانها , وتقتل فيها كل قدرة على الحياة بنفس مطمئنة.

فالنفس الأمّارة بالسوء إن إنطلقت تجتاح معاقل النفس اللوامة وتدفنها في مكامنها ولا تبقي لها أثرا في بشر , وإن وجد هذا البشر فأنه سيلاقي حتفه ويقضي نحبه دون إكتراث من غيره , بل يكون محطّ إتهام وإزدراء , لأنه قد رفع يده بوجه سيل الرغبات العارمة , ودفق الإنفعالات المسيئة المجردة من معايير الذوق والأخلاق , ويصبح الإنسان الصائب مخطئا والعاقل مجنونا , وتضيع المقاييس والإعتبارات والحقوق والواجبات , وتشيع الجريمة الفحشاء والمنكر , ويلوذ الناس إلى صوامع عزلتهم , ويقطعون صلتهم بالدنيا إلا بما يكفل حاجاتهم , ولا يقدرون على الإتيان بأضعف الإيمان لأن الموت سلطان يقبض الأرواح إن نطقت الأفواه بحق وقالت بغير لغة السلطان.

إن الشعوب عندما تسعى إلى حتفها تسحق رجالها الذين يتعاملون معها بالعقل والحكمة , لأن هدير المشاعر وقرع طبول الإنفعالات أعلى من صوت العقل.

يبدو أن في أعماق النفس البشرية لبعض الشعوب في زمن ما نزوع لا شعوري لخلق سيوف مسلطة على أعناقها , كأنها تريد الإنتقام من نفسها والإستراحة من عذابات الضمير المتفاقمة في دنياها

أما القوانين السلطوية فهي وسائل دفاعية لحماية السلطة ولا تعالج مشاكل الشعب , بل تضيف إليها وقودا لتزيد من أجيجها

إن الشعوب لكي ترتقي وتصنع حياتها الآمنة السعيدة , لا بد لها من ترشيح أخيارها عقلا وخُلقا ومنبعا وتنشأة , لتمثيلها في صياغة القوانين اللازمة لتذليل صعاب حياتها , وتحقيق أكبر قدر من مصالحها بأقل ما يمكن من الخسائر

إن النفس البشرية الأمّارة بالسوء عندما لا تجد رادعا يقمعها فأنها تمضي على هواها , فتطلق خبايا سوئها وتلون الشعوب بألوانها , وتقتل فيها كل قدرة على الحياة بنفس مطمئنة

والشعوب التي قتلت قادتها العقلاء صنعت لها من سورة الإنفعالات جلادين مهرة , إستباحوا حرماتها وقتلوا أبناءها وشردوا عقولها , وفق شعارات تداعب أحاسيس الجماهير وتقودهم إلى ما تشاء إرادات الطغيان دون وعيهم.

وهكذا يضيع وعي الشعوب وتمضي منومة إلى المصير المجهول , ويتم إستثمار شبابها لتحقيق أقصى الغايات الطغيانية بإثرائهم وتمكينهم من غيرهم , وتغذية عقدهم وحاجاتهم فيتحولون إلى قوى منفلتة أشرة تدور حول معاقل الكراسي والسلطان .

فتدخل الشعوب في نفق مظلم لا تشفى منه إلا بإصابة بيت الطغيان بداء الإنحلال الذاتي , حيث تبدأ أساطين الإستبداد بأكل بعضها.

وذلك يحتاج إلى وقت, لأن الضغينة والبغضاء تنمو ببطئ وقد لا تُشَم لها رائحة أو يرى لها دخان , بل تصل إلى ذروتها بغتة وحالما تبدأ المفاجآت الإنحلالية, يبدأ العد التنازلي.

وبهذا تدفع الشعوب ضريبة قاسية جراء إطلاقها لمشاعرها السائبة , وإندفاعاتها وراء أهوائها وعدم تقديرها لعقلاء أبنائها , وحين تنهار معالم الطغيان تكون في وقت جيل آخر لا يعرف ما عاناه الجيل أو الأجيال السابقة , فتعاد الكرة من جديد ويبقى ناعور الآهات يدور.

ولن يتوقف أبدا إلا بنور العقل , وماء الحكمة وزلال الإعتبار والتروي والإمتلاك الصادق لفيض السماء.

وأخيرا فأن الشعوب التي لا تمتلك حكومات قادرة على تثمير الأفكار وإستخلاصها , إنما هي شعوب ميتة ولا يمكنها المواكبة في القرن الحادي والعشرين.

حيث سيكون للعقول الذكية دورها في الحياة وللأفكار فعلها وتأثيرها , وستكون الأفكار رأس المال الحقيقي لأنها تأتي بكل شيئ وترتقي بالشعوب إلى حيث يتحقق إمتدادها تحت الشمس , وربما يتعداه إلى مجموعات شمسية أخرى مجاورة لنا.

والقائد المثالي هو الذي يوفر أكبر قدر من حرية الرأي , وفرص إطلاق الأفكار وتحقيقها إلى أقصاها , وإلا فإقرأ على دولته وشعبه ونظام حكمه ومصيره السلام.

*هذه المقالة مكتوبة في بداية العقد الأخير من القرن العشرين ومنشورة في بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

النفس الأمّارة بالسوء إن إنطلقت تجتاح معاقل النفس اللوامة وتدفنها في مكامنها ولا تبقي لها أثرا في بشر

إن الشعوب عندما تسعى إلى حتفها تسحق رجالها الذين يتعاملون معها بالعقل والحكمة , لأن هدير المشاعر وقرع طبول الإنفعالات أعلى من صوت العقل

الشعوب التي قتلت قادتها العقلاء صنعت لها من سورة الإنفعالات جلادين مهرة , إستباحوا حرماتها وقتلوا أبناءها وشردوا عقولها , وفق شعارات تداعب أحاسيس الجماهير وتقودهم إلى ما تشاء إرادات الطغيان دون وعيهم

أن الشعوب التي لا تمتلك حكومات قادرة على تثمير الأفكار وإستخلاصها , إنما هي شعوب ميتة ولا يمكنها المواكبة في القرن الحادي والعشرين

*** ***

شبكة علوم النفس العربية
نحو لياقة نفسانية أفضل
Arabpsynet

*** ***

مؤسسة العلوم النفسية العربية
معا ... نذهب أبعد
ArabPsyFound